التَوبةُ النَّصُوح

● **الغاية من الخطبة** : حث المصلين على التوبة ، وبيان أحكامها وجوائزها .

● **العناصر الأساسية :**

(١) الأمر بالتوبة النصُوح .

(٢) سِعَةُ رحمة الله تعالى بعباده المذنبين ؛ توبة المنافقين ، وتوبة الكافرين .

(٣) الأمر بالمسارعة إلى التوبة ، والنهي عن التسويف والتمادي والإصرار .

(٤) التائبون العظام : سحَرَة فرعون .

(٥) فرح اللهِ تعالى بتوبة عبده ؛ وفرحة العبدِ نفسه ومَن حوله .

(٦) قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري الزائفة ؛ وقصة حاطب بن أبي بَلتَعَة ؛ وزواج الزانية .

(٧) جائزة التوبة النصُوح : استبدال الحسنات بالسيئات (الباء تلحق بالمتروك) .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- يقولُ اللهُ تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ (التحريم:٨) ويقولُ ﷻ ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (النور:٣١) ويتكررُ الأمرُ بالتوبةِ النصُوحِ في القرآنِ الكريمِ والسُّنةِ النبويةِ المُطهرةِ بأساليبَ مُباشِرةٍ وغير مباشِرةٍ ، وبذلك يفتحُ اللهُ تعالى أبوابَ رحمتِه لِعبادِه المُذنبين على مِصْراعَيها . ويبقَى القرارُ الحاسِمُ للعَبدِ : فإما التوفيقُ والتوبةُ النصُوحُ ، وإما الإصرارُ على المَعاصي والخُذلانِ المُبين !

٢- إن اللهَ تعالى يَعلمُ حقيقةَ الخَلْقِ ، ويعلمُ ضَعفَهم أمام الشهواتِ ، ولذلك فتحَ لهم أبوابَ التوبةِ . فيقولُ ﷻ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (النجم:٣١،٣٢) فالخطأُ والذنبُ والمَعصيةُ قَدَرُ الإنسان ؛ وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « كلُّ ابنِ آدمَ خَطَّاءٌ ، وخَيرُ الخَطَّائين التوَّابون .» ومعلومٌ لكلِّ مسلمٍ أن آدمَ ـ أبا البشرِ ـ عليه السلام ، عَصَى ربَّه ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢٢) فرَحمَةُ اللهِ تعالى بعبادِه واسعة . والتوبةُ النصوحُ هي السبيلُ إليها ، مهما كَثُرَتِ الذنوبُ والمعاصي . وفي هذا يقولُ اللهُ تعالى ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) والمنافقون إذا تابوا تُقبَلُ توبَتهم ، وقد قالَ تعالى في حقِّ المنافقين الذين قالوا كلمةَ الكفرِ ، وتآمرُوا لِقتلِ النبيِّ ﷺ ﴿ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (التوبة:٧٤) وقالَ ﷻ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨).

٣- والخطرُ الذي يتهددُ العِبادَ هو : الإصرارُ على المعاصي ، والتَّسويفُ والتأجيلُ للتوبةِ ، وقولُ العبدُ لنفسِه : غداً أتوبُ ! غداً أكفُّ ! ثم لا يتوبُ ولا يكفُّ ؛ واللهُ تعالى يأمرُنا بالمُسارَعةِ إلى التوبةِ ، وعدمِ الإصرارِ ، ويَعِدُنا إذا أطعْنا جناتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ ، فيقولُ ﷻ ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن

يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٦) فالمسلمُ قد يقترفُ فاحشةً مرةً ، لكنه سَرْعَانَ ما يَكفُّ ، ويَستغفِرُ ربَّه ، ويتوبُ إليه ، ولا يُصرُّ على اقترافِ الفواحشَ ، فهذا جزاءُه الجنةُ خالداً فيها . أما إذا لم يُسارعْ إلى التوبةِ ، وأصرَّ على المَعصيةِ ، فهو هالكٌ ، إلا أن يتغمَدَّه اللهُ بتوبةٍ نَصُوحاً .

٤- ويذكرُ القرآنُ الكريمُ نماذجَ رائعةً للتائبين العِظامِ . فهؤلاءِ سَحَرَةُ فرعونَ الذين حَشدَهم الطاغيةُ في مواجهةِ نبيِّ اللهِ موسى عليه السلام ، لكي يُثبتَ لشَعبِه أنَّ موسى كاذبٌ وساحرٌ ، وأن سَحرَةَ فرعونِ أمْهرُ منه في السِّحرِ ! وحين أيْقنوا أنهم أمامَ نبيٍّ صادقٍ ، لا كاذبٍ ولا ساحرٍ ، أعلنوا توبتَهم ، وإيمانَهم به ، دون أن يَعبَأوا بتهديداتِ فرعونَ الرهيبةِ . يقولُ اللهُ تعالى ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ (طه:٧٠،٧١) ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ (طه:٧٢) والسيرةُ النبويةُ الشريفةُ تعْرضُ نماذجَ كهذه من بين الصحابةِ الكرامِ رضي الله عنهم ، مثلَ عمارِ ابنِ ياسرٍ ، وبلالِ بن رَبَاحٍ ، وخُبَيْبٍ ، وغيرهم . فلعلنا نتعلَّمُ منهم ونقْتدي بهم ، ونتحمَّلُ صعوباتِ التوبةِ عن الإدمانِ والمعاصي والذنوبِ والعاداتِ الخاطئةِ وأنواعِ التقصيرِ نحو ربِّنا ونحو الناسِ .

٥- والتوبةُ أيها الأخوةُ حَدَثٌ عظيمٌ للفردِ نفسِه ، ولمن حولَه . فلْنتخيَّلْ - مثلاً- تاجراً غشاشاً ، مُطفِّفاً ، قد تابَ عن الغشِّ والتَّطفيفِ ، واكتفى بالكسْبِ الحلالِ . إنه يشعرُ بسعادةٍ عظيمةٍ . وضميرُه يشعرُ بالسَّكينةِ والراحةِ بعد عذابٍ طويلٍ . والذين يتعاملون معه يفرحون بتوبَتِه ، لأنها تستعيدُ ثقتَهم فيه . واللهُ تعالى

يفرحُ لتوبَةِ العَبدِ . يقولُ النبيُّ : « لَـلَّـهُ أفـرَحُ بتوبةِ العَبدِ المؤمنِ من رَجُلٍ نزَلَ في أرضٍ دَوِيَّةٍ ، مُهلِكةٍ ، معه رَاحِلَتُه ، عليها طعامُه وشرابُه ، فوضعَ رأسَه فنامَ نَوْمَةً ، فاسْتيقَظَ وقد ذهبَتْ راحِلَتُه ، فطلبَها . حتى إذا اشْتدَّ عليه الحَرُّ والعَطَشُ ، أو ما شاءَ اللهُ ، قالَ : أرْجعُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه فأنامُ حتى أموتُ . فوضعَ رأسَه على سَاعِدِه ليموتَ . فاسْتيقظَ فإذا راحلتُه عنده ، عليها زادُه وشرابُه . فاللهُ تعالى أشدُّ فرحاً بتوبةِ العبدِ المؤمنِ من هذا (الرجل) براحِلتِه . »

٦- والتوبةُ تَجُبُّ ما قبلها ؛ يعني تمحُو الذنوبَ السابقةِ عليها ، بل تُستَبدَلُ الحسناتُ بالسيئاتِ . واللهُ تعالى يقولُ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠) ويقولُ ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ٥٤)
وعلى هذا الأساسِ كذَّبَ العلماءُ قصةَ ثَعلبَةِ التي تقولُ إنَّ النبيَّ ﷺ لم يقبلْ توبتَه ! فالقصةُ كلُّها من أوَّلِها إلى آخرها زائفةٌ . وقصةُ حاطِب بن أبي بَلتَعَةَ تؤكدُ زيفَ قصةِ ثَعلبَة . إن حاطباً خانَ المسلمين ، وعلى الرغمِ من ذلك تجاوزَ النبيُّ عن خيانتِه ، لأنه من أهلِ بَدرٍ . فلماذا تُرفَضُ توبةُ ثعلبَةَ وقد كان أيضاً من أهلِ بَدْرٍ؟! ويقولُ المفسرون إن التوبةَ تجعلُ زواجَ الزانيةِ حلالاً ، ما دامتْ قد تابَتْ توبةً نصوحاً . والآيةُ التي تُحرِّمُ زَواجَ المؤمنِ من زانيةٍ ، والمؤمنةُ من زانٍ ، تُفسَّرُ على أن ذلك إذا لم يتوبا . قالَ تعالى ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٣) لكنْ إذا تابَا توبةً نصُوحاً ، جازَ للمؤمنِ أن يتزوجَ مَن كانت زانيةً ، وجازَ للمؤمنةِ أن تتزوجَ مَن كان زانياً . فهذا أصلٌ كبيرٌ من أصولِ الإسلامِ . وكلُّ ما يتعارضُ معه مِن أخبارٍ وقصصٍ وتفسيراتٍ يجبُ رَدُّها احتراماً لمبدأ أن التوبةَ تَجُبُّ ما قبلَها .

٧- وأعظمُ من هذا وَعدُ اللهِ تعالى بأن التوبةَ النصُوحَ تَستَبْدِلُ الحسناتِ بالسيئاتِ . فيقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان:٦٨-٧٠) وهذه هي أعظمُ الجوائزِ قاطِبةً . فهل تكفي لجَذبِنا إلى التوبةِ النصوحِ؟ وإذا لم تكفِ لذلك ، فماذا يمكن أن يَجذِبَنا ؟ !

٨- إنَّ البيئةَ الاجتماعيةَ لها دَور كبير في نشرِ المَعاصي أو العَكس . ويَنصحُ الحُكماءُ أهلَ المعاصي بالبُعدِ عن العُصاةِ ، وتغييرِ أصدقاءِ السوءِ ، وإشباعِ الحاجاتِ بالحلال ، والتقرُّبِ من الصالحين وصُحْبَتِهم ، والحِرصِ على تعلُّمِ القرآنِ الكريمِ والاطِّلاعِ على سيرةِ النبيِّ ﷺ . فهل نُساعِدُ أنفسَنا وإخوانَنا على التوبةِ ؟ نسألُ اللهَ تعالى أن يُوفِّقَنا إلى ذلك إنه سميعٌ قريبٌ ، مجيبٌ .

(الدعاء)

شُكْرُ المُنعم جَلَّ جَلالُه

● **الغاية من الخطبة** : تذكير الناس بنعم الله تعالى وواجب شكره عليها .

● **العناصر الأساسية** :

(١) بعض نعم الله الكبرى .

(٢) واجب شكر الله تعالى ، وإثم كُفران النِّعم ، وتحريض الشيطان عليه .

(٣) كيف نشكر الله تعالى؟ الناسُ في الشكر ثلاثة .

(٤) الشكر سبب زيادة النعمة ؛ شكر اللهِ ، وشكر الناس للناس .

(٥) شكر داوود عليه السلام ، وشكر نبينا محمد ﷺ .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- يقولُ الحقُّ تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(إبراهيم:٣٤) وقولُه الحقُّ ﷻ ، فلا أحَدَ يستطيعُ أن يُحصِي نِعمَ اللهِ تعالى بسببِ كثرَتِها التي لا تُدْرَكُ لها نهايةٌ . والعلومُ الحديثةُ تُذْهِلُنا بما جاءَتْ به من مَعَارفَ وحقائقَ عن نعمِ اللهِ تعالى على الإنسانِ في ذاتِ نفسِه وفي عالمِه . والقرآنُ الكريمُ يَذكرُ كثيراً من نعمِ اللهِ الكبْرى . فيقولُ جلَّ شأنُه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

(إبراهيم:٣٢-٣٤)

- ويقولُ ﷻ عن حُسْنِ خَلْقِ الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون:١٢-١٤).

- ويقولُ ﷻ ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس:٢٤-٣٢).

- ويقولُ أيضاً ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾

(الواقعة:٦٣،٦٤)

- ويقولُ أيضاً ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص:٧١،٧٢)

٢- وواجبُ الإنسان الذي يتمتعُ بهذه النعمِ مجاناً أن يشكرَ المنعمَ ﷻ . وقد أمرَنا ربُّنا أمراً وجوبياً أن نشكرَه فقالَ تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾(البقرة:١٥٢) ووَرَدَ الأمرُ بالشكرِ للهِ خمسَ مراتٍ في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ (البقرة:١٧٢) وقولُه تعالى ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:١١٤) لكنَّ الإنسانَ «كفَّار» - لا يؤدي شكرَ اللهِ تعالى كما يَنبَغي ، على الرغم من كثرةِ نِعمِهِ عليه . والقرآنُ يُثبتُ هذه النَّقيصةَ في الإنسان فيقولُ ﷻ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (المؤمنون:٧٨) ويقولُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:٢٤٣) والمؤمنُ الحقُّ يجبُ أن يتحاشَى هذا الإثمَ ،

ويَحرصَ على شكرِ الله تعالى بما يليقُ بإحسَاناتِه وإنعاماتِه ، وإن كان من غيرِ الميسورِ أن يَفِيَه حقَّهُ من الشكرِ .

٣- وشُكرُ المُنعمِ ﷻ يكونُ باللسان ، وبالعملِ . واللهُ تعالى يقولُ ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣) وشكرُ المنعمِ بالعملِ يقتضي ألاَّ نَعصِيَ اللهَ تعالى بنِعمِهِ بمعنى ألاَّ نستخدمَ نِعمَهُ في عِصيانِه ، ولا نُعطِّلُ نِعمَهُ ، بل نَستخدِمُها في طاعتِه . فنِعمةُ الصحةِ تُستَخدَمُ في العِبادةِ ، والعملِ الصالحِ ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ ، وإعمارِ الأرضِ ؛ ونِعمةُ المالِ تُستخدَمُ في التمتعِ بالطيباتِ التي أحلَّها اللهُ ، دون إسرافٍ أو تبذيرٍ ، مع الحِرصِ على إخراجِ الزكاةِ ، وسَدِّ خَلاَّتِ المحتاجين ، والتبرُّعِ في أوجُهِ الخير . وتُروَى قصةٌ لشرحِ موقفِ العبادِ من واجبِ شكرِ المُنعمِ ﷻ . فيُقالُ إنَّ مَلِكاً أنعمَ على ثلاثةٍ من رَعاياه بخَيلٍ ومالٍ كثيرٍ ، وتركَهم يتصرَّفون في تلك النعم . فأحدُهم استخدمَ النِّعمَ للتَّقرُّبِ من المَلِكِ ، فزَادَه المَلِكُ منها كثيراً . وأما الثاني فقد جلسَ في دارِه ولم يستخدِمْ تلك النعمَ في أيِّ شيءٍ . وأما الثالثُ فقد حاولَ استغلالَ النعمِ في معصيةِ أوامرِ الملكِ ونظامِ حكمِه ! فالأولُ مثالٌ لشُكرِ النعمةِ بالعملِ الذي يُقرِّبُ من المُنعمِ ؛ والثاني مثالٌ للسلبيةِ ؛ وهي نوعٌ من كُفرانِ النِّعمِ ؛ وأما الثالثُ فهو نَموذجٌ لكفرانِ النعمةِ الذي يَجلبُ سُخْطَ المُنعمِ وغَضبِه !

٤- والقرآنُ الكريمُ يُوضِّحُ ـ على لسانِ موسى عليه السلام ـ أنَّ اللهَ تعالى يزيدُ النِّعمِ لمَن يشكرُهُ باللسانِ والعملِ ، فيقولُ ﷻ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) ويقولُ النبيُّ ﷺ : «اشكرْ لمَن أنعمَ عليكَ ، وأنعِمْ على مَن شكرَكَ ، فإنه لا تزولُ نعمةٌ إذا شُكِرَتْ ، ولا دَوامَ لها إذا نُكِرَتْ» . وهذا قانونٌ مُتَّبَعٌ في واقعِ الحياةِ . فإذا أنعمَ إنسانٌ على آخرَ ، فلم يَشكرْه ، ولم يُظهرْ أيَّ تقديرٍ للنعمةِ التي فازَ بها ، فإنَّ الإنسانَ الذي أعطاها إياهُ يميلُ بقوةٍ إلى حِرمانِه من أيِّ عطاءٍ آخرَ ، ويُفضِّلُ شخصاً آخرَ عليه .

والمؤمنُ الواعي يستفيدُ من هذه الحقيقةِ، فيَشكرُ مَن يُنعمُ عليه من إخوانِه أو أهلِه، ويُظهرُ له تقديرَه للنعمةِ، وبذلك يُشجعُه على تَكرارِ العملِ الطيبِ. وهكذا تتوالَى الأفعالُ ورُدودِ الأفعالِ، وبذلك تَثْرَى الحياةُ الاجتماعيةُ. وهذا لا يتنافَى مع الإيمانِ بأن اللهَ تعالى وحدَه هو المُنعمُ الحقُّ، وأنه بفضلِه وتوفيقِه يُنعِمُ العَبدُ على أخيهِ العبدِ مما أنعمَ اللهُ عليه به. والقرآنُ الكريمُ يَحثُّ على ردِّ الفعلِ الإيجابيِّ، فيقولُ ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء:٨٦) والرسولُ ﷺ يقولُ: «مَنْ صنعَ إليكم معروفاً فكافئوه، فإنْ لم تجدوا ما تُكافِئونَه به فادْعوا له حتى تَرَوْا أنكم قد كافأتُموه». غيرَ أنَّ المؤمنَ الحقَّ لا يجبُ أن ينتظرَ شكراً، ولا أيَّ مكافأةٍ مِن الناسِ؛ وسواء شكروه أو لم يَشكروه، فهو يعملُ ما في وُسْعِه ليُحسِنَ إلى الناسِ. ويُصوِّرُ القرآنُ هذه الأخلاقَ الكريمةَ فيقولُ على لسانِ عِبادِ اللهِ المُخلِصين ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان:٩) يقولون ذلك في أنفسِهم، ولا يُعلِنونها، وإلاَّ حَبِطتْ أعمالهم، لأنها تؤذِي المُنعَم عليه أو المُستَفيدَ، وتُعَدُّ مَنًّا مُحرَّماً.

٥- وأنبياءُ اللهِ عليهم الصلاةُ والسلامُ هم الأُسْوةُ الحَسنةُ لنا في شكرِ المُنعمِ ﷻ، ويُذكَرُ أن داودَ عليه السلام كان يقولُ: «كيف أشكرُكَ يا ربِّ، وشُكري لك نعمةٌ مِنك تستحقُّ الشكرَ ؟!» وكان نبيُّنا الكريمُ ﷺ لا يَفتُرُ لحظةً عن شُكرِ اللهِ تعالى بلِسانِه، وقلبِه، وعملِه. ولقد قالتْ له أمُّ المؤمنين عائشة رضيَ اللهُ عنها ذاتَ يومٍ: «أليسَ اللهُ قد غفرَ لك ما تقدَّمَ مِن ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟ فما هذا البكاءُ في السجودِ؟ وما هذا الجُهدُ الشديدُ ؟» فأجابَها ﷺ بقولِه: «أفلا أكونُ عَبداً شكوراً ؟»

- فما أحوَجَنا إلى مَعرفةِ نِعمِ اللهِ علينا، في أنفسِنا، وفي عالَمِنا، وما أحوَجنا إلى شكرِ المُنعمِ ﷻ، ليَزيدَنا نِعَماً؛ وما أحوَجَنا إلى شكرِ إخوانِنا الذين يُساعِدوننا ويَعطِفون علينا، ليكون كلُّ واحدٍ مِنَّا عبداً شكوراً بحق.

(الدعاء)

العَدْلُ والبرُّ للمُسلمِ والكتَابيِّ

● **الغاية من الخطبة** : تبديدُ المخاوف من تطبيق الشريعة في المجتمعات المسلمة التي فيها أقليات من اليهود والنصارى .

● **العناصر الأساسية** :

(١) العدل غاية لإرْسال الرسالات السماوية ، ينعَمُ به المسلمون وكل مَن يعيش بينهم .

(٢) الإسلام يأمر بالعدل للمسلم وللكتابي جميعاً .

(٣) قصة زيد بن السَّمير اليهودي الذي أوشك أن تُقطع يده ظلماً

(٤) تعريف العدل الإسلامي .

(٥) الله تعالى حرَّم الظلم على نفسه .

(٦) البرُّ بأهلِ الكتاب ؛ والبرُّ فوق العدل .

(٧) العدل مع المشركين الظالمين .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

(١) يَتُوقُ المسلمون إلى تطبيقِ الإسلامِ كاملاً شاملاً في كلِّ نواحي الحياة . ويَسُوءُهم أبلغَ إساءةٍ هَجْرُ بعضِ تعاليمِه وشرائعِه وإحلالُ شرائعَ أجنبيةٍ مَحلَّها . ومعظمُ البلادِ الإسلاميةِ فيها أقليَّاتٌ من أهلِ الكتابِ ؛ فالمشكلةُ مَطروحَةٌ على نطاقٍ واسعٍ . فهل تطبيقُ الإسلامِ كاملاً ظَلَمَ أهلَ الكتابِ في عَهدِ النبيِّ ﷺ أو عَهدِ الراشدين أو أيِّ عَهدٍ آخرَ طُبِّقَ فيه في التاريخِ؟ وهل تطبيقُ الإسلامِ كاملاً في عَصرنا هذا فيه ظلمٌ للنصارى أو اليهودِ الذين يعيشون وَسطَ المسلمين كأقليَّة ؟

- هذا هو السؤالُ الكبيرُ الذي سنحاولُ الجوابَ عنه الآن . وأوَّلُ ما يجبُ أن نعلمَه عن هذه المسألة هو أن العَدلَ بحَسَبِ أحكامِ القرآنِ الكريمِ هو الغايةَ التي بَعثَ اللهُ رُسُلَه ومعهم رسالاتِه بقَصْدِ إقامَتِه بين الناسِ على الأرضِ . فيقولُ الحقُّ تبارك وتعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد:٢٥) والقِسطُ هو العَدلُ . فكلُّ رسالاتِ اللهِ تعالى نَصَّتْ على وجوبِ إقامةِ العَدلِ بين الناسِ ، ومَنعِ الظلمِ ورَدْعِ الظالمين . والقرآنُ الكريمُ ، خَاتَمُ الرسالاتِ ، يَنُصُّ على وجوبِ العدلِ وتحريمِ الظلمِ ، فيقولُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾(النحل:٩٠)

(٢) والعدلُ في الإسلامِ حقٌّ لكلِّ مسلمٍ صالحٍ أو فاسدٍ ، تَقيٍّ أو فاجرٍ ، وحقٌّ لكلِّ ذِمِّيٍّ يعيشُ بين المسلمين . والقاضي المسلمُ لا يَسألُ المُدَّعِينَ أو المُدَّعَى عليهم عن دِينِهم ؛ لأنَّ الإسلامَ يريدُ أن يقومَ «الناسُ» بالقِسْطِ ، لا المسلمين وحدَهم ، كما جاءَ في الآيةِ الكريمةِ السابقِ إيرادُها . وهذه عَظَمَةُ النظامِ القضائيِّ الإسلاميِّ الذي لا يَعرفُ التفرقةَ على أساسِ الدينِ أو اللونِ أو اللغةِ أو الثقافةِ . هذا في الوقتِ الذي لا تزالُ الأممُ المتقدمةُ تحاولُ جَاهدةً أن تَرْتَفِعَ إلى هذا المستوى الرفيعِ ، ولا يزالُ المُلوَّنون ـ مثلاً ـ يُعانون الأمَرَّيْن في أمريكا وأوربا . والتقاريرُ الإعلاميةُ تتوالى عن مَظاهرِ التفرقةِ العُنصريَّةِ البغيضةِ ضد المسلمين خاصةً .

(٣) وفي القرآنِ الكريمِ قصةٌ رائعةٌ وقعَتْ في المدينةِ المنوَّرةِ في عهدِ النبيِّ ﷺ . تقولُ القصةُ إنَّ رجلاً من الأنصارِ يُدْعَى طُعْمَةَ بن أُبَيْرِق سَرَقَ أشياءَ من بَيتٍ من البيوتِ ، كانت مَوضوعةً في كيسٍ فيه بعض بقايا الدقيق . وكان في الكيسِ خَرْقٌ ، فتسرَّبَ منه الدقيقُ . ولم يَنتبه اللصُّ لذلك بسببِ الظلامِ الدامسِ . وفي الصباحِ تتبَّعَ مالِكُ المَسروقاتِ خَطَّ الدقيقِ ، حتى انتهى إلى بيتِ طُعمَةَ . ولكنَّ طُعمَةَ قذفَ بالكيسِ في بيتِ جارِهِ اليهوديِّ ـ زيدِ بنِ السميرِ ، لِيَلْتَبِسَ الأمرُ على النبيِّ ﷺ

ويَقطعَ يدَ اليهوديِّ ، ويَفلِتَ اللصُّ الحقيقيُّ من العقابِ . هنا أنزلَ اللهُ جبريلَ عليه السلام بآياتٍ تُبيِّنُ الحقيقةَ ، وتُبرِّئُ اليهوديَّ ! قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء:١٠٥-١٠٧) إلى أنْ قالَ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١١٢) تِسْعُ آياتٍ بَيِّناتٍ لِبَراءَةِ رَجلٍ يَهوديٍّ . فهل ثَمَّةَ حِرْصٌ على العدلِ لغَيرِ المسلمين كهذا العدلِ الإلهي؟ إنه المَثَلُ الأعلَى الإسلاميُّ للعدلِ الذي يَبتَغيهِ القُضاةُ المسلمون والشهودُ المسلمون . وهلْ هذا العدلُ ، بهذا النظامِ ، يُخشَى منه على اليهودِ والنصارى في ديارِ الإسلامِ ؟

(٤) والعدلُ في الإسلامِ : أن ينالَ كلُّ إنسانٍ ثمرةَ جُهدِه ، وأنْ يتحمَّلَ تَبِعَةَ أخطائِه ، لا فرقَ بين مسلمٍ وكتابيٍّ . والظلمُ هو : أن يَغتَصِبَ المَرءُ ثمَرَةَ جُهدِ غَيرِه ـ بالمَكرِ والخِداعِ أو بالقوةِ ـ أو أن يُلقِي تَبِعَةَ أخطائِه على غَيرِه ، كما حاولَ أن يَفعلَ طُعمَةُ بنُ أُبَيرق . ودليلُ هذا هو قولُ اللهِ تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم:٣٨،٣٩) وكلُّ النُّظُمِ والتشريعاتِ والقوانينَ يَجبُ أن تُصَمَّمَ من أجلِ تحقيقِ هذا العدلِ ومَنعِ ذلك الظلمِ . فإذا فعَلَتْ كانت مَشروعةً وإسلاميةً ، وإن لم تفعَلْ كانت مرفوضةً في حُكمِ الإسلامِ ، لأنها تكونُ عندئذٍ ظالمةً ، ويتحتَّمُ إلغاؤها .

(٥) ولكي نعلمَ مدى إدانةِ الإسلامِ للظلمِ ، يقولُ ربُّنا عز وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٠) وجاءَ في الحديثِ القُدسيِّ قولُه تعالى : « يا عِبادي ، إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجَعلتُه بينكم مُحرَّماً ، فلا تَظالَموا» . فاللهُ عز وجل لا يظلمُ أحداً ؛ لا يظلمُ المؤمنينَ ولا يظلمُ الكافرين . والإسلامُ يَسعى لتحقيقِ هذا المَثلِ الأعلى في حياةِ البَشرِ ، بقَدرِ ما يستطيعُ البَشرُ ، ليَنْعَمَ بهِ كلُّ البشرِ .

(٦) فليس هناكَ أدنى مُسوِّغ للمخاوفِ التي يتحدثُ عنها البعضُ بسببِ تطبيقِ الإسلامِ تطبيقاً كاملاً ، عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً . فلن يَمسُّهم ظُلمٌ أبداً . وفضلاً عن هــذا ، يُبيحُ الإسلامُ للمسلمِ أن يَبرَّ أهلَ الكتابِ . والبرُّ أعلى من العدل ؛ لأن العدلَ أخذٌ وعطاءٌ ، كما يحدثُ في البيعِ والشراءِ مثلاً ، لكنَّ البرَّ عَطاءٌ بلا مُقابل ، فيقولُ اللهُ تعالى ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨) وإعلانُ الآيةِ في كلماتِها الأخيرةِ عن حُبِّ اللهِ للمُقسِطين ، أيْ العادلين ، حَثٌّ قويٌّ للمسلمِ لكي يلْتزمَ بالعدلِ في مُعامَلةِ أهلِ الكتابِ المُسالمين . أما الذين قاتَلوا المسلمين وأخرَجوهم من ديارهم ـ كما فعلَ الصهاينةُ في فلسطين ـ فليس لهم إلا الجهادُ حتى يَستعيدُ المسلمون أراضيهم وديارهم المُغتَصَبة . وهذه بَدَهيةٌ في التعاملِ مع المُعتدين في كلِّ الشرائعِ والقوانين التي عَرفتْها البشريةُ .

– وقد مارسَ المسلمون العدلَ مع اليهودِ في الأندلسِ حين فتحَها المسلمون في نهايةِ القرنِ الهجريِّ الأولِ ، وكان النصارى يضْطهدونَهم هناك ، فوَضَعهم المسلمون فــي القــلاعِ العسكريةِ تحت حمايةِ رجالهم المباشِرةِ . وعلى امتدادِ التاريخِ الإسلاميِّ شَغلَ أهلُ الكتابِ المَناصِبَ الرفيعةَ في معظمِ الدولِ التي حَكمَتْ بلادَ المسلمين ، كما كانوا أصحابَ ثرَواتٍ واسعــةٍ ونفــوذٍ اقتصــاديٍّ كبيرٍ . لكنْ عندما حكمَ النصارى بلادَ الأندلسِ سَفكوا دماءَ المسلمين وأجبَروهم على اعتناقِ النصرانيةِ بطرقٍ وَحشيَّةٍ بَشعَةٍ .

(٧) وحتى المشركون الظالمون الذين أخرجوا النبيَّ ﷺ والمسلمين من ديارهِم في مكةَ المكرمةِ ، عامَلَهم المسلمون المُعامَلةَ العادلةَ حين هاجرَتْ نساؤهم إلى المدينةِ المنورةِ ، إذْ نزلَ القرآنُ يقولُ للمسلمين ﴿ ... وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ (الممتحنة:١٠) ويقولُ ﴿ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ (الممتحنة:١٠) وذلك هو العدلُ : فكلُّ زوجٍ من الطرفيْنِ ترَكتْـه زوجتـه بسببِ اختلافِ الدينِ ، له الحقُّ في استردادِ ما أنفقَـه عليها . فيا أيها المسلمون ، تمسَّكوا بالعدلِ ، وإيَّاكم والظلمِ ، لِتفوزوا بالسعادةِ في الدنيا والآخرةِ .

(الدعاء)

الزكاةُ والصَّدقاتُ

● **الغاية من الخطبة** : بيان خطورة الزكاة وأهميتها كرُكنٍ من أركان الإسلام ، وكعلاجٍ لأمراض اجتماعية ونفسية عديدة .

● **العناصر الأساسية** :

(١) المالُ مالُ اللهِ تعالى ، والعبدُ وكيل ؛ وحكمته تعالى في تفاوت الأرزاق .

(٢) الزكاة فرضٌ لا يصحُّ دينُ العبد بدونه .

(٣) المستحقون للزكاة .

(٤) آدابٌ للمُزكِّي : لا مَنٌّ ولا أذى .

(٥) وآدابٌ للمُستفيد : مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله !

(٦) الزكاة كعلاج للأمراض النفسية .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ** ﴾ (النور:٣٣) هذه الآيةُ الكريمةُ تأمرُ المسلمين بتحريرِ العبيدِ عن طريقِ المُكاتَبةِ ، وهي : شِراءُ العَبدِ نفسَه من سيِّدِه بالتقسيطِ . وتأمرُهم بمُساعدتِهم في ذلك مالياً ، ويُذكِّرهم القرآنُ بأن المالَ مالُ اللهِ تعالى . وهذه حقيقةٌ دينيةٌ يجبُ علينا أن نؤمنَ بها ، أعني أن المالَ الذي نَملكُه هو مالُ اللهِ تعالى ، وأننا وُكلاءٌ للهِ فيه . ويترتَّبُ على هذه الحقيقةِ واجبٌ على الوكلاءِ تِجاهَ المالِكِ الحقِّ للمال ، ﷻ ، وهو أن يُنفِّذَ أوامرَه في مالِه ، فإذا قالَ لنا ﴿ **وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ (البقرة:١٩٥) سَارعْنا إلى الإنفاقِ بالقَدْرِ الذي يُحدِّدُه الرسولُ ﷺ ، وفي الوقتِ الذي يُحددُه ، وإلى المُستفيدين الذين يحددهم .

- والقرآنُ الكريمُ يُذكِّرُنا كثيراً بأن المالَ مالُ اللهِ لكي يُيسِّرُ لنا إيتاءَ الزكاةِ ؛ فيصفُ المؤمنين بقولِه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:٣) ويأمرُهم فيقولُ ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ (المنافقون:١٠) ويستنكِرُ القرآنُ الكريمُ امتِناعَ بعضِ الناسِ عن الإنفاق من مالِ اللهِ تعالى فيقولُ ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٣٩).

- وإنَّ النظرَ في واقعِ الحياةِ لَيؤكدُ لنا أن المالَ مالُ اللهِ تعالى . فاللهُ تعالى هو خالِقُ المَصادِرِ التي تُنتجُ المالَ : فالأرضُ ، والشمسُ ، والماءُ ، والهواءُ ، كلُّها من خَلْقِ اللهِ تعالى وتدبيرِه . والإنسانُ يَستغلُ مَصادرَ الثروةِ مَجاناً ؛ فنحن لا ندفعُ فواتيرَ الشمسِ والماءِ والهواءِ !! ونحن ننامُ في بيوتِنا في حين تنمو الثروةُ الزراعيةُ في الحقولِ والبساتينِ ، في الليلِ والنهارِ ، فإذا نضَجَتْ قطفَها الإنسانُ لِيَنعَمَ بها . ولا شك أنَّ الإنسانَ يبذلُ بعضَ الجهدِ في الزراعةِ والصناعةِ ، لكنه جهدٌ ضئيلٌ جداً إذا قارنَّاه بما يتفضَّلُ به الخالقُ مِن الخَلقِ والتدبيرِ والتيسيرِ . ثم إن جُهدَ الإنسانِ نفسَه إنما هو من خَلقِ اللهِ تعالى . وهو لا يُجدِي شيئاً إلاَّ بتوفيقِ اللهِ تعالى وتمهيدِه وعَونِه . ولذلك يَتفاوَتُ الجُهدُ ، وتتفاوتُ الأرزاقُ ، بإرادةِ اللهِ تعالى وتقديرِه ، فيقولُ ﷻ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ (النحل:٧١) لكي يحتاجَ الإنسانُ لأخيهِ الإنسانِ ، ولكي تُوجَدُ الظروفُ التي يحتاجُ فيها الناسُ بعضهم إلى بعضٍ ، فيكونُ هناك تعاونٌ ، وبَيعٌ وشِراءٌ ، وصَدقاتٌ ، وتقومُ حياةٌ بَشريةٌ اجتماعيةٌ وأخلاقيةٌ ثريةٌ .

(٢) والإسلامُ يُعلِّمُ المسلمَ أن يُعينَ أخاهُ المسلمَ ويُساعِدَه . والزكاةُ المَفروضَةُ هي أقلُّ ما يجبُ على القادرين لإخوانِهم المُحتاجين . ولذلك يَنْدُبُ الإسلامُ إلى الكثيرِ من التبرُّعاتِ ، إلى جانبِ الزكاةِ ، فيقولُ الحقُّ تبارك وتعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة:١٠٣) وقد أخذَ النبيُّ ﷺ الزكاةَ من

المسلمين القادرين ، ووزعَها على الفقراءِ والمساكينِ وبقيةِ المُستحقين . وجعلَ النبيُّ ﷺ زكاةَ المالِ رُكناً من أركانِ الإسلامِ لا يصحُّ دِينُ المسلمِ ـ القادرِ عليها ـ إلاّ إذا آتاها على الوجهِ الشرعيِّ السديدِ . وقاتلَ أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ ، الذين امتنعوا عن إيتاءِ الزكاةِ ، واعتبَرَهم مُرتدِّين عن الإسلامِ . فالإسلامُ كلٌّ لا يتجزأ ، والزكاةُ قرينةُ الصلاةُ ؛ ويجبُ على كلِّ مُسلمٍ أن يتذكَّرَ هذه الحقيقةَ الإسلاميةَ الكبرى ، فلا يجتزئُ من الإسلامِ ، فيأخذُ بعضَه ويرفض بَعضَه !

(٣) وحدَّد الإسلامُ المُستحقِّين للزكاةِ ، فقالَ تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠) وقد اختفى بعضُ المُستحقِّين ـ وهم المؤلفةُ قلوبُهم ـ فيُعطَى نصيبُهم إلى الفقراءِ والمساكينِ وبقيةِ المُستَحقين . والمهمُّ أن يتذكرَ المسلمُ أن الزكاةَ مثلُ الديونِ من حيثُ إنها يجبُ أن تُؤدَّى إلى أصحابِها ، وأنها إذا دُفِعَتْ إلى غيرِ مُستحِقٍّ لم تسْقُطْ عن المُزكِّي . لهذا يجبُ على المُزكِّي أن يُدقِّقَ عند إخراجِ زكاتِه لكي يُعطيها لمُستحقِّيها الحقيقيين . فإذا دقَّقَ وبحثَ ، وبناءً على ذلك اعتقدَ أن فلاناً من الناسِ مُستحقٌّ للزكاةِ ، فأعطاهُ شيئاً منها ، ثم اكتشفَ بعد ذلك أن ذلك الرجلَ لم يكنْ يستحقُّها ، فلا إثمَ عليه ، زكاتُه مَقبولةٌ إن شاءَ اللهُ ، وليس عليه إعادةٌ . ونحن الآن لا نُدقِّقُ عند إخراجِ الزكاةِ ، ونعطيها لمَن لا يستحقُّها ، بسببِ قرابةٍ مُعيَّنةٍ ، أو نظراً لخِدمةٍ يؤديها لنا شخص ما ؛ وهذا خطأٌ كبيرٌ جداً .

- ويجوزُ إعطاءُ الزكاةِ كلَّها لشخصٍ واحدٍ أو مشروعٍ لِخدمَةِ الفقراءِ ؛ فبهذه الطريقةِ يمكنُ إنجازُ مشروعاتٍ خيريةٍ تخدمُ الفقراءَ طَوالَ الوقتِ ؛ كذلك يجوزُ إخراجُ الزكاةِ مُقدَّماً عن سَنتيْن أو ثلاثِ سنوات ، بقصدِ تجميعِ مبلغٍ كبيرٍ لإنجازِ مشروعٍ كبيرٍ . ويجوزُ لمِثلِ هذه الأغراضِ تجميعُ الزكاةِ من عددٍ من المُزكِّين . لكن هذا لا يجبُ أن يُنسينا الحالاتِ الفرديةِ الحرجَةِ .

(٤) وقد حددَ الإسلامُ آداباً للمُزكّي لكي تُقبَلُ زكاتُه ، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾(البقرة:٢٦٤) فالصَّدقاتُ ، وأهمُّها الزكاةُ ، غايتُها مساعدةُ الفقيرِ ، لا الإساءةُ إليه ، أو جَرْحُ مشاعِرِه . وواجبُ المُزكي أن يُخاطِبَهُ بكلِّ أدبٍ ، فالمالُ مالُ اللهِ ، والزكاةُ حقُّ الفقيرِ ، كما يصفُها القرآنُ الكريمُ ، فلا مُسوِّغَ للمَنِّ والأذى أو جَرحِ المشاعرِ . واللهُ تعالى يقولُ ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ (البقرة:٢٦٣) هذه آدابُ المُزكّي ، إذا الْتَزمَها قُبِلتْ زكاتُه بأمرِ اللهِ ومَشيئتِه ، وإذا انتهَكها حَبِطَ عَملُه وبَطُلَتْ زكاةُ مالِه والعياذُ باللهِ !

(٦) وللمُستفيدُ من الزكاةِ آدابٌ أيضاً . فهو لا يَقبلُ الزكاةَ إلاَّ إذا كان من أهلِها ، أي المُستحقين لها . وكما قرَّرَ النبيُّ ﷺ ، لا يَحلُّ لغنيٍّ أن يأخذَ من الزكاةِ شيئاً . وحين يأخذُ المسلمُ الزكاةَ من يَدِ أخيهِ المسلمِ يجبُ أن يَدعوَ له ، لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ : «اشكرْ لمَن أنعمَ عليكَ ، وأنعِمْ على مَن شكرَكَ .» فيقولُ له ـ مثلاً ـ «شكرَ اللهُ لك» أو «بارَكَ اللهُ لك في مالِك وزادَك منه بالحلالِ» أو غيرَ ذلك من الأدعِيَةِ . هذا مع يَقينِه بأنَّ المالَ مالُ اللهِ وأن العِبادَ وُكلاءٌ في أموالِهم .

– والزكاةُ علاجٌ عظيمٌ للفقرِ الذي يُصيبُ كثيراً من الناسِ . فكلُّ مجتمعٍ فيه الأيتامُ والأراملُ والشيوخُ والعَجَزةَ ، والعاطلون عن العملِ ، الذين لا يعملون ولا يُنتِجون ، وتبعاً لذلك لا يَكسِبون . فكيف يعيشُ هؤلاءِ؟ إنَّ الزكاةَ تساعدُهم على العَيشِ حتى تنصلِحَ أحوالُهم ويعودون إلى العملِ والكَسْبِ ، وتُباعدُ بينهم وبين الانحرافِ والسرقةِ والجريمةِ ، وبذلك تُوطِّدُ الأمنَ والسكينةَ في حياةِ المجتمعِ المسلمِ . ووجودُ نُظُمُ المعاشاتِ والضمانُ الاجتماعيِّ لا يُلغِي دَوْرَ الزكاةِ ، بل يتضافرُ معه ، لأنه يكونُ غالباً غيرَ كافٍ لنفقاتِ الأُسَرِ .

- وتُقيمُ الزكاةُ علاقاتٍ طيبةٍ وَدودةٍ بين الأغنياءِ والفقراءِ ، وتنزعُ الحَسدَ والحِقدَ من النفوسِ ، وتُعمِّرُها بالحُبِّ والتعاطفِ والخَيرِ . ويقولُ علماءُ النفسِ إن مساعَدةِ الإنسانِ لأخيهِ الإنسانِ تمحو الأنانيةَ من نفسِه ، ومعها أمراضٌ نفسيةٌ عديدةٌ . فالمُزكي يستفيدُ الصحةَ النفسيةَ من زكاتِه ، فضلاً عن مَرْضاةِ اللهِ تعالى وثوابِه العظيمِ ، ومحبَّةِ إخوانِه الفقراءِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة: ٣٤-٣٥) فلْنحْرصْ على أداءِ زكاتِنا كاملةً غيرَ مَنقوصَةٍ لنفوزَ بالخَيرِ في الدنيا والآخرة .

(الدعاء)

الحياةُ الزوجيةُ

● **الغاية من الخطبة** : توعية الجمهور بأصول الحياة الزوجية وضمانات نجاحها .

● **العناصر الأساسية** :

(١) انجذاب الجنسَيْن أحدهما نحو الآخر بفعل الفِطرَة التي فطرَ الله الناسَ عليها .

(٢) وحثُّ الإسلام على الاستجابة للفِطرة عن طريق الزواج الشرعي ، ونهيُه عن الزنا .

(٣) الغاية من الزواج ، وأهمُّ شروط الزواج الناجح .

(٤) قيادة الحياة الزوجية للرجل ، دون استبداد ؛ ودور الزوجة في ذلك .

(٥) واجبُ حُسن العِشرة بين الأزواج .

(٦) أخطار تهدد حياتنا الزوجية اليوم .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (آل عمران:١٤) فالله تعالى فَطرَ الرجالَ على اشتِهاءِ النساءِ ، وفَطرَ النساءَ على اشتِهاءِ الرجال ، وزَيَّنَ الأنثى للذكرِ والذكرَ للأنثى ؛ وتلك هي الفِطرَةُ السليمةُ . وإذا عَدِمَ الرجلُ الرغبةَ في النساءِ كان معنى ذلك أنه يُعاني من نَقصٍ أو مَرضٍ . وكذلك المرأةُ . واشتهاءُ إنجابِ البنينَ يأتي بعد ذلك ؛ والزواجُ هو السبيلُ المشروعُ للإنجابِ . ونحن لا نخجَلُ ، ولا يَنبغي أن نخجَلِ من هذه الفِطرَةِ التي فَطرَ اللهُ الناسَ عليها . وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ مثالاً للفِطرةِ السليمةِ السديدةِ القويةِ .

٢- وقد حثَّنا الإسلامُ على الاستجابةِ للفطرةِ ، فأمرَ اللهُ تعالى بالزواجِ ، وقالَ جلَّ شأنُه ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (النساء:٣) وقالَ أيضاً ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ (النـور:٣٢) وقـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ : « يا مَعْشرَ الشبابِ ! مَن استطاعَ الباءَةَ منكم فلْيَتزوَّجْ ، فإنه أغَضُّ للبَصرِ وأحْصَنُ للفـرْجِ ، ومَن لم يَستطِعْ فعليهِ بالصومِ فإنه له وِجَاءٌ .» وقالَ العلماءُ والمفسرون إنَّ حُكمَ الزواجِ الوجوبُ لمَنْ يَخشى على نفسِه الفِتنةَ والوقوعَ في الحرامِ ؛ وحُكمُه النَّـدْبُ لمَن لا يَخشى الفِتنةَ ؛ وحُكمُه الحُرْمَةُ لمَن لا يَقدِرُ على القيامِ بواجباتِ الزوجيةِ ؛ و ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) فالزوجُ عليه واجباتٌ عديدةٌ ، نحو زوجتِه ونحو أولادِه ، لِتقومَ الحياةُ الزوجيةُ الناجحةُ السعيدةُ . فلا بدَّ أن يكون قادراً عليها .

- وقرر الإسلامُ تدابيرَ وقائيةً للحَيلولةِ بين المسلمِ وبين الفحْشاءِ ، فقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢) وقرَّرَ عُقوبةَ الزنا الرَّجمُ للمُحْصِنِ حتى الموتِ والجَلْـدُ مائةَ جَلدةٍ لغيرِ المُحصِنِ . ونهى رسولُ اللهِ عن الخَلْـوَةِ بين المرأةِ والرجلِ الأجنبيِّ - يعني الذي مِن غيرِ محارمِها . كذلك نهى عن عَضْـلِ النساءِ ؛ كلُّ ذلك لكي يُغلِقَ كلَّ الأبوابِ في وَجهِ الفحشاءِ ويفتحَ كلَّ السُّـبُلِ للزواجِ والإشباعِ الحلالِ للبواعثِ الفِطريةِ لدى الرجالِ والنساءِ .

(٣) والزواجُ في الإسلامِ يسيرٌ جداً . وشروطُـه : الإيجابُ والقَـبولُ ، والوليُّ للزوجةِ ، والشاهدان ، والصَّداقُ (مهما كان يسيراً) . ويجبُ أن نُضيفَ شرطاً جديداً بعد أن انتشرَ الإلحادُ وكَـثُـرَتِ الرِّدَّةُ الصريحةُ والمُقنَّعةُ في هذا العَصرِ ، وهو : التأكدُ من إيمانِ الزوجيْنِ بالإسلامِ ؛ وإن كانت المرأةُ كتابيةً يجبُ التأكدُ من إيمانِها بدينِها كشرْطٍ لِصحَّةِ الزواجِ من مسلمٍ . ويجبُ تسجيلُ الزواجِ ، لضمانِ حقوقِ الزوجيْنِ والأولادِ والمجتمعِ . والغايةُ من الزواجِ الإسلاميِّ : السَّكنُ والمَودَّةُ

والرحمةُ بين الزوجين والأولادِ ، واللهُ تعالى يقولُ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١) و«السَّكنُ» كلمةٌ ثريَّةٌ بالمعاني الطيبةِ ، فهي تشتملُ على الاستقرارِ النفسيِّ والاجتماعيِّ ، وعلى السَّكينةِ والهدوءِ وراحةِ القلبِ والبال ، وعلى الرضا والسعادةِ العميقةِ . وعلينا أن نتذكرَ هذه المعاني قبلَ الزواجِ ونسألَ أنفسَنا إنْ كان الرجلُ المُرشَّحُ ـ (أو المرأةُ المُرشَّحةُ) ـ قادراً على تحقيقِ هذه الغاياتِ النبيلةِ التي تجعلُ الحياةَ الزوجيةَ حياةً طيبةً مُثمِرةً . ويجبُ أن نقاومَ إغراءَ النواحي الجَسديةِ أو الماليةِ وأن نتذكرَ الشروطَ الدينيةَ والأخلاقيةَ ، فإننا إنْ نسِيناها لم نفلحْ أبداً في تكوينِ أسرةٍ مسلمةٍ سعيدةٍ مُثمِرةٍ .

(٤) والزوجُ هو رئيسُ الأسرةِ . وتلك مسئوليةٌ كُبرى . والزوجةُ شريكتُه . يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء:٣٤) لكنَّ القَوامَةَ قيادةٌ واعيةٌ حكيمةٌ عَطوفةٌ ، وليست قيادةً استبداديةً حمقاءَ ، قاسيةً ، عدوانيةً ، كما يَتوَّهمُها بعضُ الجُهلاءِ . ويقولُ اللهُ تعالى في ذلك ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة:٢٣٣) فهذه بعضُ مسئولياتِ الأمهاتِ ـ أعني حَضانةَ الطفلِ ؛ وهذه مهمةٌ شاقةٌ جداً ، لا يعرفُها إلا مَن عاينَ وعَانى حَضانةَ الأطفالِ بكلِّ ما تعنيهِ مِن رعايةٍ ويَقظةٍ وسَهرٍ وقلَقٍ عظيمٍ . ثم يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة:٢٣٣) وهذه بعضُ مسئولياتِ الأبِ . وهي أيضاً ليست يسيرةً . فالأبُ مسئولٌ عن إطعامِ أولادِه وزوجتِه ، وإسكانِهم ، وكِسوَتِهم ، وعلاجِهم ، وتعليمِهم . ولذلك نقولُ إن القوامَةَ مسئوليةٌ جَسيمةٌ . ولا يجوزُ بحال أن تُتَّخَذَ دليلاً على دُنوِّ مكانةِ المرأةِ في الإسلامِ ؛ ولا يجوزُ أن تُفهَمَ على أنها تُطلِقُ يَدَ الزوجِ في شئونِ أسرَتِه دون اعتبارٍ لرأيِ زوجتِه ؛ وفي الآيةِ السابقةِ ذاتِها يقولُ ﷻ ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (البقرة:٢٣٣) أي أن فِطامَ الطفلِ يجوزُ أن يقعَ

قبلَ مَضيِّ سَنتيْنِ من الرَّضاعَةِ ، شَريطةَ أن يَتمَّ ذلك بالتشاورِ بين الوالديْنِ ، لا برأيِ أحدِهما دون الآخر . وهذا مثالٌ للشورى الإسلاميةِ في الحياةِ الزوجيةِ . ويجبُ أن نقيسَ على ذلك الشئونَ الأُسريَّةَ كلَّها ، وسنجدُ أن الشورى واجبةٌ في كلِّ الأمورِ المهمةِ للأسرةِ .

(٥) وهكذا يتحققُ حُسنُ العِشرةِ ، تطبيقاً لقول اللهِ تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:١٩) والمَعروفُ هو ما تعَارفَ الناسُ على أنه عدلٌ وحقٌّ وبِرٌّ ؛ والإسلامُ حددَ الأشياءَ الأساسيةَ في المُعاملاتِ الأُسريةِ : كالخِطبةِ والزواجِ والنفقاتِ والحَضانةِ والطلاقِ والمواريثِ . وحُسنُ العِشرةِ يتحققُ باتباعِ شريعةِ اللهِ تعالى في هذه المُعاملاتِ . ويُعلمُنا الرسولُ ﷺ أن نوسِّعَ صُدورَنا لزوجاتِنا ، لأنهنَّ بَشر ، فيهنَّ الخُلُقُ الحَسنُ ، وفيهِنَّ الخُلقُ القبيحُ ؛ والأزواجُ كذلك ! فيقولُ عليه السلام : «لا يحقُّ لمؤمنٍ أن يَفرُكَ مؤمنةً ، إذا ساءَه منها خُلق رَضيَ منها آخرَ .» يعني يجبُ أن يتقبَّلها بطبيعتِها البشريةِ ، ويجبُ عليها أن تتقبلَ زوجَها أيضاً بصِفاتِه البشريةِ من النقصِ والخطأِ .

(٦) واليومَ تفشلُ الحياةُ الزوجيةُ في كثيرٍ من الحالاتِ بسببِ جَهلِ الزوجيْنِ بأصولِ الزواجِ وأحكامِه وشروطِ نجاحِه ، وواجباتِ كلٍّ من الزوجيْنِ ؛ وحقوقِه . وعلينا أن نعرفَ شريعةَ الزواجِ وأحكامِها قبلَ الزواجِ ، لكيلا نفشلَ فيه ، بعد أن نكون قد أنفقنا الكثيرَ لإتمامِه ، وربما رُزقنا بطفلٍ أو اثنيْنِ ، يكونُ مَصيرُهما التشردُ بعد الطلاقِ .

(الدعاء)

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الأنعام:٥٠)

● **الغاية من الخطبة** : تحذيرُ المسلمين من الاجتزاءِ من القرآن ، والتَّقوُّل على اللهِ .

● **العناصر الأساسية** :

(١) محاولاتُ الجاهليين العرب تزييف بعض المَقولات ونِسبَتها زوراً إلى الإسلام.

(٢) النهيُ عن تَركِ بعض آيات القرآن الكريم .

(٣) التَّقَـوُّلُ على اللهِ كبيرةٌ من الكبائر يجب تحاشيها بكل صرامة .

(٤) عتابُ القرآن للنبيِّ ﷺ حين حرَّم على نفسه شُرْبَ العسل لإرضاءِ بعض أزواجه .

(٥) واجبُ اتباعِ السُّنة النبوية المطهرة .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- يجبُ علينا أن نتذكر دائماً أن عقيدتَنا وشريعتَنا وأخلاقياتِنا ليستْ من صُنعِنا أو تأليفِنا ، ولكنها مأخوذةٌ من كتابِ اللهِ تعالى ومن سُنةِ رسولِه ﷺ . وكلُّ أمـرٍ لا أصلَ له من القرآن الكريم أو السُّنةِ المُطهرةِ هو أمرٌ بَشريٌّ يُمكِنُ أن يُقبَلَ أو يُرفَضَ . والقرآنُ الكريمُ والسُّنةُ النبويةُ وَحْيٌ من عندِ اللهِ تعالى ، وهو سُبحانَه القائلُ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٣،٤) وقد حَفِظَ اللهُ تعالى كتابَه الكريمَ من العَبَثِ ومن الزيادةِ والانتقاصِ ، فلم يُضَفْ إليه حَرْفٌ ولم يُنتقَصْ منه حَرفٌ ، على الرغمِ من المحاولاتِ العديدةِ التي جَرَتْ ، والتي أحْبَطها اللهُ ورسولُه والمؤمنون .

- يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (يونس:١٥) فبعضُ الآياتِ لم تكنْ تُعجبُ الجاهليين العربَ ؛ وكانوا يطلبون من النبيِّ ﷺ أن يَأتيَهم بآياتٍ أخرى تُوافقُ آراءَهم ؛ ومن ذلك مثلاً أن أهلَ الطائفِ طلبوا من النبيِّ أن يؤلفَ آيةً تقولُ إنَّ بلادَهم مُحرَّمةٌ مثلُ مكةَ المكرمةِ ! وكان الرسولُ ﷺ يقولُ لهم إنه رسولٌ وإنه لا يستطيعُ أن يُبدِّلَ شيئاً من آياتِ القرآنِ الكريمِ . إنَّ من حقِّهِ أن يأمرَ المسلمين وأنْ يُشرِّعَ لهم ، ولكن ليس بخِلافِ ما يأمرُ به القرآنُ الكريمُ . فلا النبيُّ ولا أحدَ من أفرادِ الأمةِ المسلمةِ يمكنُ أن يُبدِّلَ كلمةً في القرآنِ الكريمِ . وأيَّةُ محاولةٍ للانتقاصِ والإضافةِ إلى كتابِ اللهِ هي محاولةٌ إجراميةٌ يجبُ مَنعُها وإحباطُها ، لأنها إثمٌ عظيمٌ جداً .

- وقد أمضى المشركون العربُ الليالي الطويلةَ في إلحاحٍ متواصلٍ لدى النبيِّ ﷺ لكي يتركَ القرآنَ المُنزَّلَ عليه من ربِّه ويؤلفَ لهم قرآناً على هواهم ! وفي هذا يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾(الإسراء:٧٣-٧٥) هذه الآيةُ الكريمةُ تُبيِّنُ لنا مدى الضغطِ والإغراءِ الذي مارسَه المشركون لكي يُغيرُ النبيُّ لهم القرآنَ ؛ وكان النبيُّ ﷺ حريصاً على هدايتِهم ؛ وكانوا يَكرهون المُسلمين الفقراءَ الذين يلتفون حَولَ النبيِّ ، فطلبوا طردَهم ، فهَمَّ النبيُّ أن يستجيبَ لهم ، لكنَّ اللهَ تعالى نهاهُ عن ذلك .

(٢) وحاولَ المشركون خِداعَ النبيِّ والمسلمين فأظهروا قَبولَهم ببعضِ أحكامِ القرآنِ ، لكنهم رفضُوا بعضَها ، وهي تلك الأحكامُ التي صادمَتْ أهواءَهم ،

وحاولوا إغراءَ النبيِّ بتركِها ، فنزلَـتِ الآياتُ تأمرُهُ بالحُكمِ بما أنزلَ اللهُ ، وتقولُ : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة:٤٩) فالخُدعةُ هنا هي التسليمُ ببعضِ أحكامِ اللهِ ورَفضُ بعضِها ؛ وهي الخُدعَةُ التي ما زالتْ تُـمارَسُ ضد الإسلامِ إلى اليومِ . فأعداءُ الإسلامِ لا يطلبون منا تَـركَـهُ كلَّهُ دَفعَةً واحدةً ، بل يطلبون تَـركَ بعضِ الآياتِ وبعضِ السُّنَنِ النبويةِ . ومن المؤسفِ أن بعضَ أبناءِ المسلمـين يفعلُ ذلك ، ويُصرُّ ـ على الرغمِ من ذلك ـ على أنه مسلمٌ ! والحقُّ أنَّ رَفضَ حَرفٍ واحدٍ من القرآنِ الكريمِ يُخرجُ المسلمَ من دينِ الإسلامِ . فلْنحْذَرْ هذا الإثمَ الكبيرَ ، ولْنتمسَّكْ بالقرآنِ كلِّه والسُّنةِ النبويةِ كلِّها ، ونقولُ كما علَّمنا اللهُ تعالى ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(الأنعام: ٥٠).

(٣) إذاً ، تركُ حرفٍ من القرآنِ كبيرةٌ من الكبائرِ . وأيضاً إضافةُ شيءٍ إلى القرآنِ كبيرةٌ من الكبائر . وقد حذَّرَ القرآنُ الكريمُ من تلك الكبيرةِ فقـالَ ربُّنا ﷻ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٦) وقالَ أيضاً ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٣) وبهذا بيَّنَ القرآنُ الكريمُ للمشركين العربِ استحالةَ أن يتقوَّلَ النبيُّ على اللهِ تعالى أو يُضيفَ إلى القرآنِ الكريمِ حرفاً واحداً من عندِه هو لا من عندِ اللهِ تعالى ، وبيَّنَ لهم العقوبةَ الشديدةَ لمَن يتقوَّلُ على اللهِ تعالى .

– ونحن الآن نتقوَّلُ على اللهِ أحيـاناً دون وَعْـي ! خُـذْ مثلاً قـولَ بعضِهـم : « ربُّنا قالَ » ثم تَلَفُّظَ بكلامٍ بَشريٍّ ! والواجبُ يُحتِّمُ علينا كمسلمين إذا قُلنا : « قالَ اللهُ » أو « قالَ ربُّنا » أن نُـتْبِـعَ ذلك بآيةٍ قرآنيةٍ أو بحديثٍ قدسيٍّ صحيح .

(٤) وأيُّ شُبهَةٍ مُخالِفةٍ لاتِّباعِ القرآنِ دون زيادةٍ أو انتقاصٍ مَنهيٌّ عنها . فما أحلَّه اللهُ تعالى حلالٌ ، وما حرَّمَه حرامٌ ، ولا يجوزُ للمسلمِ أنْ يُحرِّمَ ما أحلَّ اللهُ أو يُحِلَّ ما حرَّمَ ؛ فالمسلمُ مُتَّبِعٌ لكتابِ اللهِ تعالى ولسُنةِ رسولِه ﷺ . وكان النبيُّ ﷺ قد حرَّمَ على نفسِه نوعاً من شرابِ العسلِ إرضاءً لزوجاتِه ، إذْ قيلَ أنه يُخلِّفُ في الفمِ رائحةً غيرَ طيبةٍ ؛ وكان النبيُّ يكرهُ الروائحَ غيرَ الطيبةِ ، فنزلَ القرآنُ الكريمُ يُعاتِبُ النبيَّ على تحريمِ شيءٍ أحلَّه اللهُ له ، في سورةِ التحريمِ ، حيث بدأتْ بقولِه تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التحريم:١) فلا مانعَ أن يمْتنعَ المسلمُ عن شُربِ شيءٍ أو أكلِ شيءٍ لا يُحبُّه أو لا يَستسيغُهُ ، لأنه لم يتعوَّدْ على أكلِه منذ الصِّغَرِ ، لكنْ لا يجوزُ له أن يُحرِّمَه على نفسِه أو على غَيرِه ، لأن ذلك من حقِّ اللهِ تعالى ، أعني تحريمَ الأكلِ أو الشُّربِ من أشياءَ معينةٍ .

(٥) لكن هذا لا يجبُ أن يُفهَمَ منه أن النبيَّ ﷺ ليس من حقِهِ أن يُشرِّعَ لنا نحن المسلمين . فالرسولُ مُشرِّعٌ . وهو يُشرِّعُ بوَحْيٍ من اللهِ ؛ وهو في تشريعِه متَّبِعٌ للوَحْي ، وإن كانت ألفاظُ الحديثِ الشريفِ من عندِ الرسولِ . واللهُ تعالى يقولُ ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ (الحشر:٧) ويقولُ أيضاً ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ** ﴾ (النور:٥٤) فطاعةُ الرسولِ واجبةٌ . وذلك لا يتعارضُ مع اتباعِ الوَحي ، لأنَّ السُّنةِ النبويةِ وَحيٌ ، واللهُ تعالى هو القائلُ في حقِّ النبيِّ ﷺ ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم:٣،٤) وقد شرَّعَ الرسولُ لنا ـ بوَحيٍ من اللهِ تعالى ـ شرائعَ عديدةً . وقالَ ﷺ :« صَلُّوا كما رأيتموني أُصلي ». لأن كيفيةِ الصلاةِ ليستْ مُبيَّنةٍ في القرآنِ الكريمِ . وقالَ أيضاً :« خُذوا عني مَناسِككم ». يعني مناسِكَ الحَجِّ .

- ولكنه كان ينتظرُ نزولَ الوَحي مع جبريلَ عليه السلام في بعضِ المسائلِ . من ذلك تحديدُ عددِ الزوجاتِ بأربعٍ . فقد شَكَتْ النساءُ من التعدُّدِ غير المَحدودِ الذي كان سائداً قبل الإسلامِ ، غير أن النبيَّ ﷺ لم يُشرِّعْ ، وانتظرَ جبريلَ . وكان الرجلُ يطلقُ المرأةَ ويستعيدُها مراتٍ عديدةٍ ويُعذبُها بالعَضْلِ . فلا يُطلقُها ولا يُعاشِرُها - فلم يحرِّمْ النبيُّ ذلك وانتظرَ حتى نزلَ قولُه تعالى ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ (البقرة:٢٢٩).

● وواجبُنا اليومَ أن نحافظَ على دينِنا وعلى قرآنِنا من الانتقاصِ ، أعني قبولَ بعضِه ورفضَ بعضِه ، وأن نكون مُتَّبعِين للكتابِ والسُّنةِ ؛ ولا نتقوَّلُ على اللهِ . ولا نُحلِّلُ أو نُحرِّمُ بأهوائنا . ففي هذا سعادَتُنا في الدنيا والآخرةِ .

(الدعاء)

الخُلُقُ العظيمُ

● **الغاية من الخطبة** : تبصير الناس بحقيقة الأخلاق الإسلامية وحَثُّهم عليها .

● **العناصر الأساسية** :

(١) ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾(الليل:٤) سُلوكُ البشر درجات : الدرجة الأخلاقية الحَقة .

(٢) الدرجة الوسطى : الأخذ والعطاءُ في المعاملاتِ ، وذلك هو العدل .

(٣) الدرجة الدنيا وهي : الأخذ والاغتصاب من الآخرين دون إعطائهم شيئاً .

(٤) الإيمان بثواب الله شرط لإمكان العمل الأخلاقي .

(٥) التفاعل الأخلاقي شرط الاستمرار في العمل الأخلاقي وازدهاره .

(بعد حمد الله تعالى والثناء عليه)

١- يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ (الليل:٤) ومعنى ذلك أن سلوكَ البشرِ درجاتٌ . ومن الممكنِ أن نلاحظَ وجودَ ثلاثِ درجاتٍ في السلوكِ الأخلاقيِّ . وأعلى درجةٍ هي : العطاءُ بلا مقابلٍ ، عطاءُ كلِّ شيءٍ : عطاءُ المالِ ، وعطاءُ الكلمةِ الطيبةِ ، والعطاءُ العاطفيُّ ، والمساعدةُ في كلِّ شيءٍ وبكلِّ شيءٍ . وهذا هو السلوكُ الأخلاقيُّ الحقيقيُّ في الإسلامِ ، أعني أن يفكِّرَ المسلمُ في مصالحِ الآخرينِ ، وأن يعملَ بقَـدْرِ طاقتِه لتحقيقِها ، دون أن ينتظرَ منهم جزاءً أو شكوراً .

- والآياتُ القرآنيةُ والسُّننُ النبويةُ التي تبيِّنُ لنا هذا السلوكَ الأخلاقيَّ عديدةٌ ؛ منها قولُ اللهِ تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩) فهذه هي قمةُ السلوكِ الأخلاقيِّ ، لأنَّ المَرءَ المسلمَ يكونُ في حاجةٍ إلى المالِ أو الطعامِ أو اللباسِ أو غير ذلك ،

ويجدُ أخاهُ المسلمَ في حاجةٍ إليه أيضاً ، فيُعطي الشيءَ لأخيهِ ، ويظلُّ هو يُعاني الحاجةَ إلى أن يَقضيَ اللهُ تعالى في أمرهِ . وكان النبيُّ ﷺ هو المَثلُ الأعلى في السلوكِ الأخلاقيِّ ، وممارسةِ الإيثارِ ، والبَـذْلِ والعطاءِ ، حتى وصفَـه اللهُ تباركَ وتعالى فقالَ له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤) وكانت حياتُـه ﷺ كلُّها تضحيةً وبَذْلاً في سبيلِ اللهِ تعالى وقضاءً لمصـالـحِ الأمةِ المسلمةِ وعَوناً لكلِّ مُحتاجٍ من أفرادِها . وقد تطهرَ ﷺ من أدرانِ الأنانيةِ والشُحِّ وحُبِّ النفسِ الذي يُسيطرُ على بني آدمَ ويَعميهم عن مصالحِ الآخرين . وبعد أن فتحَ اللهُ للمسلمين الفتوحاتِ وكثُـرَتِ الأموالُ والخَيراتُ والغنائمُ ، ظلَّ ﷺ على ما كان عليه من الزهدِ في أعْراضِ الدنيا ، يعيشُ على اليسيرِ من الطعامِ ، والخَشنِ من اللباسِ والفِراشِ ، ويُعطي نصيبَه من الغنائمِ للمسلمين . ولما لحِـقَ بالرفيقِ الأعلى لم يترك دِرهمَاً ولا ديناراً ، ولا بساتينَ أو حدائقَ أو إقطاعياتٍ ، وقالَ : « نحن الأنبياءُ لا نورِّثُ ؛ ما تركنا صَدقةٌ ». فلم تَـرِثْ ابنتُـه فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها شيئاً مما تركَ . وهذا هو الخُلقُ العظيمُ في صورتِه العُليا المثاليةِ . وبذلك عَلِمَ الناسُ أنه كان يُديرُ أملاكَه ـ في « فَـدَكَ » من أرض خيبر ـ لصالحِ الأمةِ ولذلك ورَّثها للأمةِ .

ـ وكان صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ يحاولون العملَ بسُنتِه ، واتِّباعِ أخلاقِه ، كلٌّ على قَـدْرِ طاقتِه . وقد تبرَّعَ أبو بكرٍ الصديقُ بنِصفِ مالِه في سبيلِ اللهِ . وعاش عمرُ بن الخطابِ ﷺ ـ وهو أميرُ المؤمنين ـ أخشنَ عَيْشٍ وأقلَّ الناسِ طعاماً ونصيباً من أعراضِ الدنيا الزائلةِ . ولو أرادَ أن يعيشَ عِيشةَ الملوكِ لفعلَ ، لكنه أصرَّ على أن يعيشَ عيشةَ النبيِّ وعيشةَ الصِّـديقِ لكي يكونَ له الأملُ في صُحبَتِهما في الآخرةِ .

ـ ولولا البذْلُ والعطاءُ دون مقابلٍ لما قامتْ للإسلامِ قائمةٌ . فالمهاجرون ضَحُّوا ببيوتِهم وأموالِهم وأهليهم من أجلِ الإسلامِ ، ودون انتظارِ لجزاءٍ من أحدٍ في الدنيا . وكذلك فعلَ الأنصارُ ، وقد بذَلوا أموالَـهم ودماءَهم في سبيلِ اللهِ . وحين جاءَهم

المهاجرون إلى المدينةِ أعْطوهم البيوتَ والدُّورَ والبساتين مُناصَفةً ؛ بل طلَّقَ بعضُهم النساءَ لكي يتزوجْن من إخوانهم المهاجرين بعد انقضاءِ عِدتِهنَّ . ولولا التضحيةُ بالمالِ والدماءِ لمَا قامَتْ دولةُ الإسلامِ ولما توسَّعتْ حتى صارتْ أعظمَ دَولةٍ في العالمِ بعد حوالَيْ مائةِ عامٍ . ولن تقومُ لنا اليومَ دولةٌ إسلاميةٌ ومجتمعٌ مسلمٌ حقيقيٌّ حتى نُمارسَ البَذلَ بلا مقابلَ وبذلك نتحلَّى ببعضِ صِفاتِ الخُلُقِ العظيمِ ـ خُلُقِ القرآنِ الكريمِ وخُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ .

(٢) لكنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يُمارسَ الخُلُقَ الرفيعَ دائماً . واللهُ تعالى يقول ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) والحياةُ البَشَريةُ تقومُ على الأخذِ والعطاءِ في معظمِ المعاملاتِ . وهذه هي الدرجةُ الوسطى في السلوكِ البَشَريِّ . وهي درجةُ العدلِ . والإسلامُ يُبيحُ لنا الأخذَ بمُقابلٍ ، والعطاءَ بمقابلٍ ، كما يحدثُ في البيعِ والشراءِ والإيجارِ ، والزواجِ . والقوانينُ هي التي تُحددُ للناسِ قواعدَ الأخذِ والعطاءِ ، لكيلا يضطربُ الناسُ ويتشاجرون . والحكوماتُ تسهرُ على تنفيذِ القوانين وتُعاقبُ الذين يَنتهكونَها .

- والعدلُ في الإسلامِ يعني أن يأخذَ كلُّ إنسانٍ ثمرةَ عملِه وأن يتحمَّلَ تَبِعاتِ أخطائه . فمَن زرعَ من حقِّه أن يحصِدَ . ومَن كسَرَ شيئاً أو قتلَ إنساناً أو جَرحَه ، عليه أن يتحمَّلَ تَبِعَةَ عملِه ، ولا يجوزُ بحال أن يُلقيها على غيرِه . وبغيرِ العدلِ لا تستقيمُ حياةُ البَشَرِ . ويقولُ ربُّنا ﷻ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد:٢٥) والقِسطُ هنا هو العدلُ . فكانت إقامةُ العدلِ بين الناسِ غايةً أساسيةً للدينِ . وكلُّ مسلمٍ مُطالَبٌ وُجوباً بإقامةِ العدلِ ، وذلك بأن يأخذَ ويُعطي بما يتفقُ مع الشرعِ . يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

(النجم:٣٨،٣٩)

- هذه هي الدرجةُ الوُسطى من سلوكِ البَشَرِ ، درجةُ التبادلِ أو العدلِ .

(٣) فإذا وضعْنا وزْرَ إنسانٍ على كاهلِ غيرِه فقد ظلمْناهُ . وإذا أعطينا إنساناً ثمرةَ سَعي إنسانٍ آخرَ دون رِضاهُ فقد ظلمْناهُ . فهذه هي الدرجةُ السُّفلى من السلوكِ البَشَريِّ ، وهذا هو الظلمُ الذي حرَّمَه اللهُ تعالى تحريماً قاطِعاً باتاً . فقالَ تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٠) وحرَّمَ اللهُ الرِّبا لأنه ظلمٌ ، وقالَ ﷻ ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٧٩) وأعطى اللهُ تعالى للمظلومِ الحقَّ في استيفاءِ حقِّه فقالَ ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(الشورى:٤٠) والعَفوُ سلوكٌ من الدرجةِ العُليا لأنه تنازلٌ عن حقٍّ . وقالَ تعالى ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٤) فالمُعتَدي ظالمٌ ، وردُّ الظلمِ من حقِّ المظلومِ ؛ والحكوماتُ هي التي تُمكِّنُ المظلومَ من حقِّه . والقاتلُ «ظالمٌ» ولذلك قضَتْ الشريعةُ بالقِصاصِ لرَدعِ المجرمين والحِفاظِ على أرواحِ الناسِ ، وقالَ ﷻ ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:١٧٩) وحرَّمَ اللهُ تعالى الغَصْبَ ، لأنه ظلمٌ ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يأخذَ من أحدٍ شيئاً إلاَّ برضاه ، لا بالقوةِ الجبريةِ ، ولا بالحِيلةِ الماكرةِ . قالَ تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء:٢٩) وعلى هذا حرَّمَ الإسلامُ كلَّ المعاملاتِ القَسْريةِ أو الجَبريةِ واعتبرَها باطلةً . وعلى كلِّ مسلمٍ أن يتحرَّى الرِّضا التامَّ عند التعامُلِ لكيلا يتورَّطَ في مُعاملاتٍ مُحرَّمةٍ .

(٤) وهكذا نرى درجاتِ السلوكِ البشريِّ . والمسلمُ الصالحُ يرفضُ الدرجةَ السُّفلى أو الظلمَ والغَصْبَ والاحتيالَ للأخذِ دون عَطاءٍ . وهو يحاولُ ممارسةَ السلوكِ الأعلى من حينٍ إلى حينٍ . وهو يحتاجُ إلى الإيمانِ الراسخِ بأن اللهَ تعالى سوف يُجازيهِ خَيرَ الجزاءِ على بَذلِه وعطائِه لإخوانِه دون انتظارِ لشيءٍ منهم ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان:٩) يقولُ المسلمُ هذه الآيةَ في سِرِّه ، لأنه لو قالَها لمَن يستفيدُ من طعامِه ، مَنَّاً منه عليه ، لَحَبِطَ عملُه ،

وانقلبَ إلى إثمٍ مُحرَّمٍ . وفي سورةِ الليلِ يظهرُ الارتباطُ الوثيقُ بين البذلِ والعطاءِ وبين الإيمانِ بالآخرةِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل:٥-١٠) فالعطاءُ أساسُه الإيمانُ بالحُسنى ـ أي بالجنةِ في الآخرةِ .

(٥) ولكي يَزدهِرَ الخُلُقُ العظيمُ وتكثُرَ ممارَسةُ المسلمين للبذلِ دون مقابلٍ ، يجبُ على المسلمِ المستفيدِ من البذلِ أن يشكرَ أخاهُ المسلمَ ؛ وإذا أُتيحَتْ له الفرصةُ للبَذلِ لإفادةِ مَن أفادَه يوماً فعليه أن يَغتنِمَها . فهذا هو رَدُّ الفعلِ السَّديدِ ، أو التفاعلُ الأخلاقيُّ الذي يُنشِّطُ العملَ الأخلاقيَّ في المجتمعِ .

(الدعاء)